المدينة في الشعر العربي الحديث والمعاصر

موضوع المدينة من الموضوعات البارزة في شعر الحداثة العربيّة، فهي دليل التطوّر الحضاري، وعالمٌ متكامل من حيث انتصار المادّة التكنولوجيّة، ولذلك شكلت صدمةً حضاريّةً للشاعر الحديث.

صدمة المدينة:

في الشعر الحديث كان الصدام بين الشعراء وبين المدينة لا يعني مقتاً للحضارة ووسائلها، وإنّما هو تعبيرٌ عن عدم الألفة بينهم وبين البيئة الجديدة. فالمدينة تُشعر بالنفور منها وهذا تَدْعو إليه أسباب، منها:

- الضجيج الكثير والازدحام، واستحداث السرعة، والإحساس بالحيرة والخوف إزاء وسائل النقل، كذلك الإحساس بالفارق بين طبقتين (فقيرة وغنية)، ممّا أدّى إلى فقدان فضائل الريف وأخلاقياته وعاداته التي سلبتها الحياة الحديثة في المدينة.
- الرومانسية كانت سبباً ثقافياً تسبب في النفور من المدينة، فقد اهتمَّ شعراؤها بالطبيعة كالبحيرات والأنهار والغابات والبحار والليل، وفضّلوا العزلة والهدوء.
- أمّا شعراء الحداثة (السياب، حاوي، أدونيس، عبد الصبور، حجازي، دُنْقُل) فقد قدموا من الريف إلى المدن بثقافتهم الرومانسية المثالية، فاصطدموا بواقع المدينة، فلم يجدوا فيها مبتغاهم، وخيبت المدينة آمالهم، فوصفوها وبالغوا في إبراز عيوبها، كما وصفوا الريف

وجسّموا فضائله، فإذا كانت صورته مثاليّةً، وصورة المدينة غير واقعية. كما أنَّ رؤاهم اختلفت باختلاف تجاربهم.

- وبهذا كانت العلاقة بين الشاعر والمدينة موزّعةً بين (التواصل والتجاذب) و (الاغتراب والتنافر)، وحصل هنا صراعٌ بين القيم قيم المدينة وقيم الريف أي بين الذات والمجموع.

وهذه الصدمة الأولى التي يعكسها الشاعر متّصلة بفقدان النقاء المعنوي في المدينة، يوازيها حنينٌ عميق إلى صفاء الريف وبعده عن الرذائل.

أوجه المدينة باختلاف رؤى الشعراء:

للمدينة أوجهٌ متعددة جدليّة، فهي ذات وجهٍ قاسٍ وأحياناً تبدو صورتها كلاسيكيّة كما في شعر نزار قباني، إذ كانت علاقته بالمدينة يسودها التواصل والتجاذب، وهي ذات صورٍ متحوّلة بين الماضي والحاضر، وتغيّرها ناجم عن وضعها القومي والسياسي. وهو بعيدٌ عن مشكلات المدينة.

وتختلف تجربة أحمد عبد المعطي حجازي مضموناً وشكلاً في هذا الموضوع عن تجربة نزار قباني، فقد قدم حجازي إلى القاهرة وهو لا يملك إلا موهبته الشعرية ، ولذلك اصطدم بواقعها وعاش فيها مشرّداً غريباً، وكانت علاقته بها علاقة تنافر وتضاد. وللمدينة في شعره وجهٌ قاسٍ ماديّ، وهي عالمٌ فسيح ذات جدرانٍ مرتفعة وأبنية شاهقة ووسائل آلية كثيرة، وفيها أعدادٌ من الناس، وهم في سفر، ويحتاج المرء فيها إلى مالٍ وافرٍ كي يعيش. ففي قصيدته (الطريق إلى السيدة) يحسّ بالضياع في طريق المدينة، وهو جائعٌ بلا نقود، ضائعٌ يجرّ ساقه المجهدة من شارعٍ إلى شارعٍ في (مدينة بلا قلب) لا ترحب إلّا بمن يملك النقود:

[لو كان في جيبي نقود

لا... لن أعود

لا لن أعود ثانياً بلا نقود

يا قاهرةْ! ...

أنا هنا لا شيء، كالموتى ، كرؤيا عابرة!

أجرّ ساقي المجهدة

للسيدة!]

القهر تحوّلت دلالته من قهر الأعداء إلى قهر الإنسان المحتاج، يتجسّد في هذا المقطع الشعري التلاشي، والشعور بالعدم، فهو ميتٌ، رؤاه محطّمة في وحشه المدينة وضياعه فيه. الوحدة، الوحشة، فقد القيم الأخلاقية، فهذا الوجه الذي يصوّره الشاعر هو وجه الوحدة، العزلة، ولكنها ليست العزلة الرومانسية، بل إنّ عزلة المدينة سلبت الفضائل والأصحاب. يقول حجازي:

[طرقت نوادي الأصحاب لم أعثر على صاحب!

وعدتُ .... يدحرجني امتداد طريق

طريقٍ مقفرٍ شاحب

تقوم على يديه قصور

وكان الحائط العملاق يسحقني،

ويخنقني

وفي عيني سؤالٌ طاف يستجدي

خيال صديق،

تراب صديق

ويـصرخ إنني وحدي]

استطاعت المدينة من خلال الزحام والسرعة واللامبالاة أن تضع الإنسان في سباقٍ مع الزمن، ففقد صلته بالآخرين، وتفككت أواصر المجتمع.

المدينة رمز الضياع والتشتت، فتأخذ صورتها السلبية دائماً، يقول حجازي:

[الحارس الغبي لا يعي حكايتي

لقد طردت اليوم

من غرفتي

وصرت ضائعاً بدون اسم

هذا أنا

وهذه مدينتي]

وهذا إقرار بوجه المدينة القاسي.

والسياب قدم أيضاً من الريف إلى المدينة حاملاً معه طموحاته وأحلامه ورؤاه، فإذا المدينةُ على غير ما توقعه منها، وعلاقته كانت علاقة تنافر وتباعد كونها هزمت طموحاته وأبادت أحلامه، وحوّلته إلى غريبٍ منبوذٍ يائس فكان غضبه كبيراً منها.

يقدّم السياب وجهاً للمدينة اغترابيّاً، فهو مغترب في غربةٍ واغتراب، إذ حوّلت المدينة الروح إلى مادّة، فقد أحالت المدينة في شعره الإنسان إلى حفار قبور، والفتاة إلى مومس، وتحوّلت المدينة إلى وحشٍ أعمى يفترس كل من يقترب منها، فلا حركة انبعاث جديدة في قوله:

[هيهات.... أينبثق النور

ودمائي تظلم في الوادي؟

والحقل، متى يلد القمحا

والورد، وجرحي مغفورُ

وعظامي ناضحةٌ ملحا؟

لا شيء سوى العدم العدم،

والموت هو الموت الباقي]

تموز المدينة لا ينبعث، إذ أحالت المدينة دمه إلى ملح وجعلت موته عدمياً.

- المدينة تحاصر الإنسان من كلّ جهة، ويُعطي السياب وجهاً حضارياً للمدينة ولكنه سلبي فالدروب الكثيرة تصبح حبالاً تلتفّ حوله، فتلغي عالم الأحياء أي الحياة وتصبغ تجربة الشاعر بصبغة العدمية والموت، ويأتي الرّماد دالاً على ذلك، حين يقول:

[وتلتفّ حولي دروب المدينة:

حبالاً من الطين يمضغن قلبي

ويعطين، عن جمرةٍ فيه طينه،

حبالاً من النار يجلدن عري الحقول الحزينة

ويحرقن جيكور في قاع روحي

ويزرعْنَ فيها رمادَ الضغينة]

وليس يعطي السياب بغداد قيمةً معنويةً بل هي رمزٌ للتلاشي والانتهاء...، يقول:

[ونحن في بغداد؟ من طينِ

يعجنه الخزّاف تمثالاً،

دنيا كأحلام المجانين

ونحن ألوانٌ على لـجّها المرتجّ أشلاءً وأوصالا]

بغداد ليست بحالٍ أفضل من حال المدينة المطلقة، فهي تشكّل عالماً رماديّاً ، عالماً مأساويّاً يقطع الإنسان، يقطع أوصال روحه التي تركها الشاعر في جيكورٍ وهي مصنوعةٌ من طين الحياة، والمدينة تعجن الطين تمثالاً لا حياة فيه ولا روح. إذاً المدينة لها وجهٌ يجرّد الإنسان من روحه، ويبقيه جسداً بلا حياة. يسبب فراغاً روحيّاً.

أمّا خليل حاوي فيصوّر علاقته بالمدينة التي تنمّ عن تضاد وتنافر، وإذ المدينة بيروت، تقدّم الإغراءات المختلفة لتسرق أموال الفقراء والبسطاء يقول:

[إنَّ في بيروت دنيا غير دنيا

الكدح والموت الرتيبْ

إنّ فيها حانةً مسحورةً

حفراً ، سريراً من طيوبْ

للحيارى

في متاهات الصحارى،

في الدهاليز اللعينهْ

ومواخير المدينهْ....]

بيروت هنا مدينةٌ للزيف الاجتماعي، فكلّ ما فيها مصنوع حتّى القيم.

أمّا صورتها لدى الشاعر حسان الجودي (شاعرٌ سوري) فتكمن في صورةٍ تخلّقت من خلال استعمال اللغة في تشكيلٍ جديد ضمن السياق الشعري، لتكون صورة المدينة حاملةً قبحين معنوي ومادي، يقول في قصيدة (خريف المدينة):

[المدينة في الخريف

جرادة سوداء تفرز لونها]

تشكل المدينة في القصيدة عالم انتصار المادة، وهي لا تنتمي إلى عالم البراءة بل هي عالم الخرائب والأطلال، ولذلك تأخذ صورتها في (جرادةٍ سوداء تفرز لونها) فالجرادة السوداء تعطينا توقعاً عن اللون الذي ستفرزه وهو اللون الأسود، الذي يرمز إلى الليل والمآتم والظلم،

وهو لون اللاوعي ويكون هذا اللون لدى الشاعر حركةً شعريةً يلون بها المدينة التي تأخذ شكل الجرادة السوداء لما تحمله من دلالة القضاء على اللون الأخضر(النبات)؛ فلا تفرز سوى الخراب والدمار. وهكذا هي المدينة تفرز في معاصرتها ما يستهلك الحالة البشرية القائمة على الوجدان والعاطفة في إطار سوداوية الواقع المدجن لصالح البشرية في إنتاجه التكنولوجي ؛وبذلك تكون المدينة :

الجرادة : عقم ⇦ قضاء على الحياة ⇦ إفراز اللون الأسود

المدينة: عقم ⇦ بلا قيم ⇦ عالمٌ انتهازي ⇦ نفاق

في هذه النماذج الشعرية بدت المدينة إن كانت مطلقة أم مقصودة باسمها بوجهها الحضاري الذي يتسم بالعفونة والنفور، وإعطاء طابع الهم والتلاشي، وانعدام الحياة عند الشاعر القادم من الريف. فقد تمزّق وجوده بين ريفٍ رومانسي وفضائل أخلاقية وبين مجتمعٍ مدني يقاس بسرعة الزمن فكل ما فيه سريع مما أدى إلى إلغاء القيم.

انتهت المحاضرة